تحليل نقدي لرواية وليم فوكنر

الصخب والعنف

بقلم جبرا ابراهيم جبرا

« غداً ، وغداً ، وغداً ،
وكل غد يزحف بهذه الخطى الحقيرة يوماً إثر يوم
حتى المقطع الأخير من الزمن المكتوب ،
واذا كل أماسينا قد أناروا للحمقى المساكين
الطريق الى الموت والتراب .
الا انطفئي ايتها الشمعة الوجيزة !
ما الحياة إلا ظل يمشي ،
ممثل مسكين يتبختر ويستشيط ساعة
على المسرح ، ثم لا يسمعه أحد .
إنها حكاية يقصها معتوه ، ملؤها الصخب والعنف ؛
لاتعني اي شيء مطلقاً . »

(مكبث لشكسبير)

— ١ —

عندما منح الكاتب الامريكي وليم فوكنر William Faulkner جائزة نوبل للأدب عام ١٩٥٠ ، كان عمره ثلاثا وخمسين سنة . وكان قد قضى اكثر من ربع قرن بكتابة الروايات ؛ وانجز منها عدداً كبيراً. وهي ليست بالكتب اليسيرة القراءة . بل ان اكثر القراء كانوا يجدون باذيء الامر في اسلوب فوكنر الطويل الجمل ، المركب الصور ، المعقد المبنى ، المليء بالكلمات المزدوجة الصياغة ، اشارة الى ضرب من الفوضى الذهنية والعاطفية في المؤلف، وعائقاً لهم عن تذوق فنه . ولكن فوكنر ظل منزوياً في بلدة صغيرة في احدى الولايات الجنوبية (اكسفورد ، مسسي) ، منصرفاً عن المعارك الادبية الى كتابته واسلوبه ، وقد خلق اسطورة بعيدة الأصول ، منتشرة الفروع ، تضيف اليها كل رواية يكتبها تفصيلا جديداً واتساعاً جديداً . وكان رائده في ايجاد هذه الاسطورة الخلاقة ان يصور ما يدعوه الامريكيون (الجنوب) : وهو يتألف من الولايات التي انتعشت على زراعة القطن واستخدمت الزنوج رقيقاً الى ان اندلعت نيران الحرب الاهلية بين الشمال والجنوب ، فخسر الجنوب الحرب ، والغي الرق ، وغزا الشمال الجنوب فيشتى الطرق وتغيرت معالم الحياة فيه .

وهذا التغيير ، بما فيه من انحطاط او سمو ، من شهامة او حقارة ، بما سبقه وتلاه من جرائم وصراع وهتك عرض ، هو موضوع فوكنر .

و « الشرف والاباء » كلمتان تترددان في اكثر كتبه. الشرف والاباء والحب والشجاعة ، وقد أحاطت بها قوى الفساد والجريمة والمادية والجشع والخسة . فان فوكنر يرى في قصة الجنوب مصغراً لما حل بالعالم من فوضى خلقية وانحلال اجتماعي ، ويرى في ذلك مأساة كونية ، وقد قيل ان فوكنر لا ينتقي من المواضيع إلا ما كان قبيحاً او مرعباً ، كأنه بذلك يغذي الغرائز الدنيا في القراء . وهذا في الواقع عكس ما يرمي اليه . لقد اراد ان يجابه مشكلة الشر ، ويتفحصها من كل جانب ، لكي يرى فعلها في حياة الانسان . وهو لذلك لم يترك رذيلة او جريمة لم يجد لها مكاناً في كتبه : فصور الاغتصاب والسلب والزنا بذوي الرحم ، والقتل والانتحار ، وقتل الاخوة ، وادمان المخدرات والمسكرات ، وسلب القبور ، وتزاوج البيض والسود ، ومضاجعة الموتى ، والفحشاء والبغاء ، وقتل الجماهير للشخص ، والخيانة والانانية ونكران الجميل . فهي كلها تصور مأساة (الجنوب) ، وبالتالي مأساة الانسان . وتنطلق كلها من قلم المؤلف عنيفة عاتية ، تعبر عن غضبه واشمئزازه . ولكنه يضع إزاءها الفضائل التي يراها آخذة في الزوال : الشهامة ، الشجاعة ، الحب ، الشرف ، الاباء ، الشفقة .

وقد وضع فوكنر لاسطورته حدوداً جغرافية ، وارقاماً للمساحة وعدد السكان ، واوجد للمقاطعة عاصمة وقرى ؛ كلها من خلقه . وجعل هذه المقاطعة الخيالية في ولاية مسيسي ، واحها « يوكناباتوفا » ، وعاصمتها « جفرسن » ، (وهذه تشبه كثيراً بلدة اكسفورد ، حيث يقطن المؤلف). واكثر السكان —عدا اصحاب الحوانيت والحرف مزارعون او حطابون، وحاصلاتهم هي على الاغلب بالات القطن التي يشحنونها الى مدينة ممفيس (وهذه حقيقية ، ويجعلها فوكنر مركزاً لكل ما يعتاج في المدن من فاحشة) . والبعض منهم يقيم في بيوت صحمة ، وهي بقايا عصر انقضى ، والبعض الآخر في منازل خشبية لا بأس بها . اما الاكثرية فمستأجرون ، وليست منازلهم بأفضل من منازل العبيد أيام ما قبل الحرب الاهلية .

ولكي يحسن القارىء فهم اية رواية من روايات فولكنر ، يجب ان يطلع مقدماً على موجز للاسطورة التي تحمل من الروايات اجزاء متواشجة . وفحواها أن « الجنوب القمي » Deep South كان يأهله قوم من الارستقراطيين ، كعشيرة سارتوريس ، وجماعة من القادمين الجدد ، امثال الكولونيل ستبن . وكانا الجماعتين عازمة على انشاء نظام اجتماعي دائم

على الاراضي التي اغتصبوها من الهنود الحمر ، وذلك بتخليف نسل يحافظ على التقاليد الاوروبية ، وهي تقاليد الشرف والفروسية . ولكن كانت في صلب خطتهم خطيئة لازمة ، وهي الرق (اذ استحضروا الزنوج من افريقيا بمئات الآلاف لهذا الغرض) . فوضع الرق لعنة على الارض ، وسبب الحرب الاهلية ، فلما خسروها ، ارادوا استعادة خطتهم بطرق اخرى ، فلم يصيبوا إلا نجاحاً جزئياً. وبمرور الزمن اكتشفوا ان بين ظهرانيهم اعداء جنوبيين وهم الطبقة الاستغلالية الجديدة ، احفاد البيض الذين كانوا ايام الرق بلا أملاك او أراض . وتتمثل هذه الطبقة في آل سنوبس ، وهي طبقة لا ضمير لها ولا وازع ، ولا غاية لها سوى الكسب المادي . واذ نشأ الصراع بين آل سارتوريس (الارستقراطيين) وآل سنوبس، كانت الهزيمة قد كتبت على آل سارتوريس مقدماً، بسبب تقاليدها التي تمنعها عن استعمال سلاح العدو المشين . ودفعاً لثمن هذا النصر ، كان على آل سنوبس انفسهم ان يخدموا مدنية الشمال الآلية ، وهي مدنية — كما يراها فوكنر — واهية اخلاقياً، وهي التي أفسدت في النهاية اهل الجنوب.(١) .

فالوضع في روايات فولكنر مبني على ان الشمال مادي وآلي ، يعتمد على على المدن الكبيرة التي تعيش فيها الملايين لا وجه لهـا ولا شخصية ، وان الجنوب زراعي يعتز شعبه بالشرف . وتيار الشمال الارعن يهدد بالقضاء على تقاليد الجنوب العريقة ، ولكنها تقاليد فيها كثير من البلى والوهم ، وتنبث منها رائحة الموت (٢) .

— ٢ —

« الصخب والعنف » The Sound and The Fury ، أول رواية نشرها فولكنر عن قصة الجنوب هذه . وكان قد كتب قبلها رواية « سارتوريس » ، ولكنه نشرها فيما بعد . وقبل هـذين الكتابين أمل المؤلف ان يحظى بالشهرة في روايتين اخريين ، ولكن دون جدوى ، لانهما كانتا عاديتين . اما اول ما نشر فهو ديوان من الشعر ، شديد التأثر بالشعر الرومانسي ، لم يلتفت اليه آنئذ احد . وهذا يدل على ان فوكنر (ككثير من الروائيين ومن جملتهم بلزاك) بدأ حياته الادبية شاعراً . ولما تحول الى النثر بقيت الروح الشاعرية في كل ما يكتب . فنثره مشحون بالصور الشعوية والالفاظ غير المتوقعة ، مذكراً القارىء احياناً بثروة شكسبير اللفظية .

« فالصخب والعنف » كتاب فوكنر الخامس . وقد اشتغل عليه زهاء ثلاث سنوات ، وكان عمره عند نشره (١٩٢٩) اثنتين وثلاثين سنة . وفي الحال التفت النقاد اليه ، ورأوا في كتابه رواية رائعة البناء والاسلوب ، سماها البعض « رواية الروائيين » . غير ان القارىء يحتاج في تذوقها وتخطي صعوباتها الى حساسية فنية مرهفة ، وأناة شديدة. فكان الكتاب نصراً أدبياً لصاحبه ، وإن لم يكن نصراً مادياً ١ .

والآن وقد كتب فوكنر حوالي العشرين كتاباً ، واتصحت خطته فيها ، نجد أن « الصخب والعنف » ما زال أحسن ما كتب . قد يضع البعض رواية « نور في آب » Light in August (١٩٣١) في المرتبة العليا ليسر تناولها ووضوحها ، غير ان التركيب الفني في « الصخب والعنف » ما زال في جماله وبراعته معجزة من معجزات الخيال .

والكتاب ، من نواح كثيرة ، تبدو فيه الاتجاهات الاسلوبية والشكلية التي شاعت بين ١٩٢٠ و ١٩٣٠. وهي من اهم الفترات واخصبها في تاريخ الرواية ، لا لظهور عدد من الروائيين الكبار فيها فحسب ، بل لكثرة التجارب ، ونجاح الكثير منها ، في فن القصة. فهي الفترة التي لمع فيها شعراء مثل تي.اس.اليوت وإزرا باوند ، وكلاهما يجمع بين الشعر والنقد وكلاهما واسع العلم ، عقليّ ، وكلاهما اثر في تغيير اشكال الادب لا في الشعر فقط بل في النثر ايضاً . وهي الفترة التي غدت فيها نظريات فرويد في اللاواعي حافزاً على معالجة مشاكل النفس الخفية ، بحيث يتغلغل المؤلف نزلاً في طوايا الشخصية ويكتشف طبقات الوعي السفلى ، الى ان يبلغ القرارة التي ترسبت فيها تجارب الحياة وذكرياتها واحلامها . وهي الفترة التي ظهرت فيها السرياليه ، مستمدة قوتها من نظريات اللاواعي ومن « الكتابة السحرية » لشعراء كان لهم تأثير عظيم ، امثال رامبو ولافورغ وغيّوم ابولينير (الذي نحت كلمة «السرياليزم»). وإلى هذا وذاك ، ظهرت روايتان مهمتان في هذه الفترة اثرتا في معظم ما كتب فيما بعد ، وهما: « البحث عن الوقت الضائع» لمارسل بروست ، و « يوليسيز » لجيمز جويس. وكلتا الروايتين تعتمد على استثارة الذكرى والتداعي ، ولكن لكل اسلوبها. فبينما تعتمد الاولى على السرد المسهب الدقيق ، تعتمد الثانية على استخراج ما في النفس من تجمعات الحوادث والخواطر لا سرداً بل دفقاً ، عن طريق المونولوغ الداخلي . والمونولوغ الداخلي يعتمد على التداعي ، والرموز المتواترة ، والصور

---

(١) انا مدين في هذا الملخص لمالكم كاولي في مقدمته الممتازة لكتاب The Portable Faulkner

(٢) ويرمز فولكنر الى ذلك في الرواية التي شهرته فجأة ، وان تكن اقل قيمة من معظم كتبه الاخرى : « الحرم » Sanctuary . ففيها يغتصب رجل من الشمال فتاة عذراء من اهل الجنوب ، ولكنه عنين (ويرمز بذلك الى الشلل في نفس الشمال) فيقضي وطره منها باستعمال كوز الذرة ولكن الفتاة بعد ذلك تلتهب شبقا، فكأنها بذلك تمثل انهيار القيم في الجنوب.

(١) ولكن اختلفت الحال مع فوكنر في النهاية ، فبيع في السنوات الثلاث الاخيرة ما يقارب الثلاثين مليون نسخة من رواياته .

المترددة . وانتشرت بين الادباء عادة ، من الصعب ردها الى اصلها ، وهي ان يبني الكاتب قصيدته او قصته على اسطورة قديمة في لباس حديث ، او ان يدخل في كتابته حوادث تعود في الواقع الى مراسيم بدائية ، كمراسيم الخصب ودفن الموتى (كنتيجة لانتشار النظريات الانثروبولوجيه) او ان تبنى الحوادث على عبارة في كتاب لأرسطو او مقطوعة لشكسبير ، او ان يجمع كل ذلك معاً في كتاب واحد ، كما فعل جيمز جويس في « يوليسيز » . ولم يستخدم هذه الاساليب الكتاب العقليون فقط ، امثال تي . اس . اليوت (مثلاً: قصيدته «الارض القاحلة ») وجيمز جويس ، بل استخدمها ايضاً السرياليون ، امثال كوكتو وغيره .

ويبدو ان فوكنر الشاب ، وقد سئم الدراسة الجامعية (فتركها دون الحصول على شهادة) ، وحاول نظم الشعر ، وتسكع ما شاء له التسكع في نيو اورلينز ، والحي اللاتيني من باريس ، وبلدته الصغيرة اكسفورد (مسسبي) ، كان يتشرّب هذه التأثيرات على مهل . ويروي المحدثون كيف كان يتمشى في شوارع اكسفورد في تلك الايام مفلساً ، حافياً ، غير حليق الذقن ، يجلس القرفصاء في مدخل احد الدكاكين عند المجلات ويقرأ ، أو يستمع الى حديث الناس وثرثرة الزنوج ، واسطورة الجنوب تتبلور في ذهنه .

ولما جعل يكتب «الصخب والعنف» كان قد هضم تأثيرات فترته ، بحيث استطاع ان يجعل منها عُدّة لكتابة عجيبة . فالكتاب يعتمد على المونولوغ الداخلي ، وتأثير جيمز جويس واضح ، ولكنه تأثير خلاّق لا محطّم ؛ والقصة في خطوطها العريضة توسيع وتمثيل لعبارة مشهورة من مأساة « مكبث »؛ وكل شخص من اشخاصها الثلاثة المهمين (وهم اخوة) يعبّر عن احدى الشخصيات اللاواعية التي اسماها فرويد : الهو id ، الأنا ego ، والأنا الأعلى super-ego ، والاخت وابنتها تمثلان الليبيدو — أي الطاقة الجنسية .

هذه عدة فوكنر . ولكنها وسيلة لا غاية . وسوف يتوقف نجاحه على مقدار ما اصاب من غايته . وغايته هي ان يصوّر انحلال اسرة آل كمبسن[1] Compson ، ضمن اطار الانحلال العام في « الجنوب » . وعليه ان يجعل من ذلك شيئاً فنياً ، مؤثراً .

(١) مؤسس الاسرة هو صديق الكولونيل ستبن وهي ايضاً عريقة التقاليد مثل اسرته .

وهذا بالضبط ما نجح في انجازه .

- ٣ -

حين يبدأ الكتاب نجد ان معظم الحوادث قد حدثت . ولن يعود اليها المؤلف إلا مستذكراً هنا وهناك ، كأن القارىء يعرفها ، وما على المؤلف إلا ان يرى اثرها وموقعها في نفس احد الابطال ، ملقياً عليها كل مرة ضوءاً جديداً . بل إن الحوادث نفسها تكاد تكون لا خطورة لها إذا قيست بما يحيط بها من ظروف وما تخلّف من وقع . والصعوبة في قراءة الكتاب تبدو في عدم معرفة القارىء للحوادث التي يشير اليها المؤلف كأنها معلومة لدى القارىء . وهو في الواقع لن يستوفي معرفتها إلا حين ينهي الكتاب . وعليه حينئذ ان يعيد قراءة الرواية من جديد ليستمتع بها المتعة الكاملة . ولعل هذا هو السبب في ان فوكنر ، بعد نشره الرواية بستة عشر عاماً ، كتب لها ملحقاً — يوضع في الطبعات الحديثة كمقدمة — يشرح فيه الحوادث المهمة في الكتاب بايجاز ، ويصف افراد آل كمبسن واحداً واحداً (راجعاً بتاريخهم حوالي مئتي سنة الى الوراء) ويوضح مكانهم في القصة . واذا هذا الملحق قطعة رائعة جديدة هي ولا شك من صلب الكتاب ، وتلقي عليه نوراً جديداً ، فهو يستمر في تاريخ افراد القصة حتى سنة ١٩٤٥ — بينما ينتهي الكتاب يوم ٨ نيسان ١٩٢٨ . فكأن اشخاص الكتاب فعلاً احياء يرزقون .

الرواية قصة اخوة ثلاثة ، هم كونتن Quentin ، وجاسن Jason ، وبنجامين (او بنجي) Benjy ، واختهم كاندس (او كادي) Candace ، وابنتها كونتن (وسميت باسم خالها بعد انتحاره) .

وقد كتبت على شكل سمفونية في اربعة اقسام ، كل قسم من الاقسام الثلاثة الاولى يتلوه احد الاخوة بالدور ، كل على طريقته ، والقسم الاخير يتلوه المؤلف ، هكذا :

١ — بنجي : بتاريخ ٧ نيسان ١٩٢٨
٢ — كونتن : ٢ حزيران ١٩١٠
٣ — جاسن : ٦ نيسان ١٩٢٨
٤ — المؤلف : ٨ نيسان ١٩٢٨

إنها سمفونية مروّعة بجمالها ومأساتها ، تتكرر فيها الاشارة الى الحوادث نفسها ، كأن كل حادثة « موتيف » في السمفونية تعزفها كل مرة آلة مختلفة . ومن بدئها حتى النهاية يتردد فيها

بكاء بنجي المعتوه ، كأنه نوح على الحياة وهي تتدهور ، كأنه «صوت كل بؤس لا صوت له» يرتفع فوق الصخب والعنف .

وكل قسم يختلف كل الاختلاف عن الاقسام الاخرى ، للاختلاف الشديد بين الاخوة : فبنجي معتوه يسمع ولكن لا ينطق ولا يستطيع إلا الصراخ والعويل . وهو حين يتلو الحوادث لا يستطيع ان يرتبها ترتيباً زمنياً . وما حدث قبل عشرين سنة ، وما حدث اليوم ، كلاهما متساوي الاهمية في سرده ، متساوي الوضوح . وكل شيء يذكره يبدو كأنه يراه لأول مرة ، بكل ما فيه من جدّة وبراءة . إنها حكاية يقصها معتوه ..

وكونتن – في ١٩١٠ ، لا في ١٩٢٨ كما في المقطع السابق – طالب في هارفرد ، مفرط الحساسية ، شديد التعلق بشرف الاسرة .

وجاسن – ونعود الى ١٩٢٨ – فظّ ، شرس ، سادي ، انانى ، يبغى من الحياة النجاح وتجميع الثروة ، عن اي طريق .

وكل منهم يشير الى الحوادث نفسها على الأغلب ، ناظراً اليها من زاويته . وخلاصة هذه الحوادث هي :

أن اسرة كمبسن (المقيمة في دار كبيرة في مدينة جفرسن ، وفي خدمتها عدد من الزنوج ، أهمهم الخادمة دلزي) تحاول التمسك بالتقاليد الارستقراطية عبثاً . فالأب ، وهو بليغ الكلام ، يعتكف على مطالعة الكتب الكلاسيكية ومعاقرة الويسكي ، ينشد فيها نسيان تيار الحياة الجديدة ؛ والأم «سيدة» شديدة الكبرياء والترفع ، ولكنها دائمة المرض تقضي اكثر اوقاتها في الفراش مصرة على منزلتها الاجتماعية ، ولا تثق الا بابنها جاسن ، وهو يسلب مالها لأغراضه الشخصية . تبيع الاسرة قطعة ثمينة من اراضيها لأرسال كونتن الى هارفرد ، وهو يحب اخته كاندس حباً شديداً ، ولكنه يتألم جداً عندما يعلم انها عشقت رجلاً غريباً وضاجعته .. فلا يستطيع ان يتحمل فكرة فقدانها العفاف ، وما في ذلك من وصم لشرف آل كمبسن ، فيدعي لأبيه انه هو الذي ضاجعها ! ثم تتزوج اخته وهو في هارفرد ، وبعد ذلك بمدة قصيرة ، حال انتهاء السنة الدراسية الاولى ، ينتحر غرقاً في نهر تشارلز في كمبردج ، ماساشوستس ، وذلك يوم ٢ حزيران ١٩١٠ . أما اخته كاندس ، فيكتشف زوجها انها حامل من رجل آخر ، فيطلقها . وتضع بنتاً تسميها «كونتن» احياء لذكرى اخيها ، وتهجر اهلها وتنتقل من رجل الى آخر وتسوء سمعتها (وقد اخذت الاسرة إبنتها كونتن لتربيتها) ، الى ان نسمع اخيراً انها في سنة ١٩٤٣ عشيقة لجنرال الماني في باريس .

وفي هذه الاثناء ترسل كاندس اول كل شهر مقداراً من النقود ليصرف على ابنتها ، ولكن جاسن – وقد كان يكرهها ويشاكسها ، يكره ويشاكس ابنتها ايضاً – يتسلم المال ، ويخفيه عن الفتاة كونتن (عدا عشرة دولارات كل شهر) ، ويجمعه في صندوق مخبأ في غرفته . فتنشأ الفتاة تحت اضطهاد مستمر منه . وفي ليلة ٨ نيسان ١٩٢٨ تتسلق شجرة الاجاص التي تمس بروعها نافذة غرفة جاسن ، وتكسر الزجاج ، وتقتحم الغرفة ، وتسرق المال (حوالي ٧ آلاف دولار) ، وتهرب به مع عشيق لها من المغنين في «السيرك» .

وبنجي طوال هذه السنين يعنى به الخدم الزنوج مع عطف شديد من دلزي . ولكن كاندس هي التي علق بها المعتوه المسكين على طريقته ، فقد كانت تلاعبه وتحنو عليه . وبعد ان اختفت كان كلما سمع اسمها يبكي وينوح ، وكلما اشتم رائحة اوراق الشجر في المطر يتذكرها لأنها مثل رائحة اخته . ويهاجم مرة فتاة دون نجاح ، فيطلب جاسن الى ابيه ان يخصيه دون جدوى ، الى ان يموت الأب فيخصى بنجي ، ثم تموت الام ، فيضع جاسن اخاه في مستشفى المجانين (١٩٣٣) ويسرح الخادمة دلزي (وكان يكرهها) واولادها ، ويبيع الدار لرجل يحوله الى نزل ، ولا يبقى من الاسرة شيء .

– ٤ –

هذه هي الحوادث الرئيسية ، ويحسن بالمرء ان يعرفها مقدماً قبل الشروع في الكتاب ، ولا سيما المقطع الاول منه .

فهذا الجزء ، الذي يقصه بنجي المعتوه ، متقطع ، قصير الجمل ، غير بادي الارتباط ، فجائي الانتقال بين فترات الزمن كأنها كلها موجودة آنياً معاً . والحوادث هنا أشبه بلعبة الـ jigsaw ، يضع القارىء اجزاءها في امكنتها ببطء الى ان يفرغ من الجزء فتكتمل الصورة . والقصة هنا لا تنمو بقدر ما تدور على نفسها أو تتحرك في خطوط متوازية . فنرى كاندس في صباها ، ونرى ابنتها الصبية ايضاً ، في نفس الصفحة . ولكن كاندس تحنو على بنجي ، في حين ان ابنتها شرسة تقسو عليه . ونرى جاسن رجلاً كاملا ، ونراه ولداً ، وهو في كلتا الحالتين شكس مكروه .

بنجي هو الانسان الاول . هو «الهو» في سيكولوجية فرويد . فيه البدائية وفيه البراءة المطلقة . وهو لا يفهم ماذا يجري حوله . انه مجموعة احاسيس فقط : بل ان حواس الشم والسمع واللمس قوية جداً هنا . فهو «يسمع السقف» (لان المطر يسقط عليه) ، ويشمّ الليل ، ويريد لمس النار لانه يحب نور اللهب . يقول فوكنر : «ما أحب بنجي الا اشياء ثلاثة : الارض الخضراء التي بيعت لارسال كونتن الى هارفرد ودفع نفقات زواج كاندس ، واخته كاندس ، ونور اللهب . وكلما ناح او صرخ ، اعطاه الولد الزنجي زهرة ليحملها فيسكت .»

هذه هي الحركة الاولى من السمفونية : قصيرة النغمات ، متقطعة ، تدور وتلتف على نفسها . ولكن جوها مفعم بأصوات الطبيعة وروائحها ، بخفق المطر وتراقص اللهب وبكاء بنجي ، والتجاذب والتناحر بين افراد عائلة تحوّم فوقها اشباح الموت .

فاذا حنّا الى الحركة الثانية ، تغيّر الاسلوب ، وتغيّر الجو ،

وتغيّرت صفة الزمن. فالقاص هنا كونتن يوم ٢ حزيران ١٩١٠. ويبدأ من ساعة نهوضه بعيد السابعة في غرفته بجامعة هارفرد، ويستمر حتى الثامنة مساء عندما يلقي بنفسه منتحراً في مياه نهر تشارلز. والجمل هنا تبدأ طويلة متداخلة متواصلة، بعكس المقطع السابق. وكونتن، وقد عزم على الانتحار، يشعر بعبث الزمن، وعبث الساعات التي تدق ثانية ثانية، دون معنى. ولعل فوكنر هنا يفصّل قول مكبث:

... وكل غد يزحف بهذه الخطى الحقيرة يوماً اثر يوم
حتى المقطع الاخير من الزمن المكتوب،
واذا كل اماسينا قد أنارت للحمقى المساكين الطريق الى الموت والتراب.

واول ما يذكر كونتن هو عن وعيه بآلة الزمن:

«عندما سقط ظل عارضة الشباك على الستائر، كانت الساعة بين السابعة والثامنة، فقد افقت-اذن في الوقت المطلوب ثانية، وأنا اسمع الساعة. كانت تلك ساعة جدي، وعندما اهداني اياها ابي قال: كونتن، إني اعطيك ضريح الآمال والرغبات كلها. وانه لمن المناسب حتى الألم انك ستستعجلها لتكسب النهاية المنطقية الحمقاء لأختبارات الانسان جميعها، وهي التي تنسجم وحاجاتك الشخصية اكثر مما انسجمت وحاجات جدك أو أبيه. اني اعطيك اياها لا لكي تذكر الزمن، بل لكي تنساه بين آونة واخرى، فلا تنفق كل ما عندك من نفس محاولاً ان تقهر الزمن. لأن ما من معركة ربحها احد، قال أبي. لا بل ما من معركة حارب فيها أحد. فالميدان لا يكشف للمرء إلا عن حماقته ويأسه، وما النصر إلا وهم من اوهام الفلاسفة والمجانين.»

ثم يقوم ويكسر عقربي الساعة، ولكنها تستمر في التكتكة: تحصي الزمن ولا تشير اليه، في آن واحد. ويضعها في جيبه.

وهذا المقطع، من اوله الى نهايته، يتحرك تحت ظل الساعة. فبينما كان الزمن في مقطع بنجي موجوداً كله آنياً لا ترتيب فيه، هنا يسمع كونتن دقات ساعات المدينة ربعاً ربعاً، وتظل ساعته المكسورة العقربين تدقدق في جيبه—وقد بطل كل ما فيها من معنى.

والفكرة الملحاح في نفس كونتن هي كيف ضيعت اخته كاندس بكارتها مع رجل يحتقره، وكيف انها قبل شهرين تزوجت من رجل آخر غني يكرهه. فيتمنى لو استطاع هو ان يضاجعها لكي يحفظها لنفسه، فيحفظ الاسرة من التفكك وفساد الدم. وهذا ما يقوله فوكنر في «الملحق»، ملخصاً بعبارة رائعة شخصية كونتن المأسوية:

«ما عشق جسد اخته، بل عشق فكرة ما عن شرف آل كمبسن، وهو الشرف المحمول مقلقلاً ومؤقتاً على غشاء بكارتها النحيف الدقيق، كمن يريد ان يوازن مصغراً للكرة الارضية التاسعة على انف فقمة مدربة. وما عشق فكرة الزنا بالأخت، وذلك ما لن يقترفه، بل فكرة دينية عن العقاب الابدي لخطيئة كتلك. وبذلك يستطيع هو، عوضاً عن الله ان يقحم نفسه واخته في الجحيم، فيحرسها هناك الى الابد، ويبقيها سليمة الى الابد وسط النيران الازلية. ولكنه عشق الموت اكثر من اي شيء آخر، ولم يعشق إلا الموت. فعشق وعاش متقصداً ومتوقعاً الموت، كمن يعشق جسد حبيبته الطري الموالي المستسلم ولكن يحجم عنه متقصداً، الى ان يعجز عن تحمل المنع لا الاحجام، فيلقي ويقذف بنفسه، هاجراً كل شيء، غارقاً في النهر ...»

ويخرج كونتن من غرفته ويذهب في سيارة نحو بوسطن، بمحاذاة النهر مدة، وهو يستذكر ما حدث له ولاخته. والمعجزة الكتابية هنا هي في الطريقة التي يعرض فيها المؤلف احياناً ثلاث طبقات من الوعي معاً. فكونتن إذ يتمشى يلقى فتاة ايطالية صغيرة لا تتكلم الانكليزية، فيشتري لها خبزاً وكعكاً، ويساعدها في البحث عن بيتها. وفي النهاية يهاجمه اخوها متهماً إياه بمحاولة اختطافها. ولكننا في الوقت عينه نجد انفسنا داخل ذهن كونتن وهو يتذكر كلفه باخته وغضبه على فسقها بتفصيل مترع بالاحاسيس. وخلال هذه الذكرى نطلع على مشهد آخر عنيف له وهو يحاول معانقة فتاة اسمها ناتالي في الطين والمطر ينهمر. لست اعتقد ان في الادب المعاصر قطعة من «سيل الوعي» كتبت بهذه البراعة وهذا السحر. ولا ريب ان بين هذه الاجزاء الثلاثة ارتباطات خفية من الرغبة والسخرية. إذ يقترن غضبه على اخته وتعلقه بها بشهوته لناتالي، مع كل ما في الطين من رمز الى المصاعب والقذارة. وما يكاد يساعد فتاة صغيرة مساعدة بريئة، حتى ينصب على رأسه غضب اخيها وقد أخطأ القصد، بينما لم يخطىء هو القصد في غضبه على عشيق اخته.

وفي خلال هذا المقطع يتبدى لنا رمز قوي آخر هو زهر العسل. ولا يستطيع كونتن ان ينساه (كما لا يستطيع ان ينسى الساعة)، لانه رمز لكل ما يشتهيه ويكرهه في كاندس فهناك مشهد يتذكره عن محاولته واخته الانتحار معاً، وإقلاعها عن ذلك، ثم محاولته الفاشلة لقتل عشيقها (وتختلط هذه الذكرى فيما بعد بمحاولته ضرب صديق له يلقاه بعد حادثة الفتاة الايطالية). والجو مشحون بشذا زهر العسل، ومن اليسير ان نرى انه اضحى رمزاً لكاندس نفسها[1]:

«عندها جعلت ابكي ولمست يدها ثانية وجعلت ابكي ووجهي على قميصها الرطب ثم استلقت على ظهرها وانطلقت نظراتها بمحاذاة رأسي نحو السماء فرأيت مداراً من البياض تحت بؤبؤ عينيها وفتحت سكيني

(١) من عادة المؤلف ان يهمل الترقيم في سرد الذكريات ليوحي بسيولتها المستمرة.

اتذكرين عندما مات خادمنا وجلست انت في الماء بثيابك السفلى

نعـــم

ووضعت طرف سكيني على حنجرتها

لن تستغرق إلا ثانية فقط ثم اطعن حنجرتي انا ايضاً

لا بأس استطيع ان تطعن حنجرتك بنفسك

نعـــم فالشفرة طويلة لا بد ان بنجي قد نام

نعـــم لن تستغرق إلا ثانية وسأحاول ألا أؤلمك

حسنا أغمضي عينيك

لا اذا وضعتها هكذا عليك ان تضغط بعزم أشد

المسيها بيدك

ولكنها لم تتحرك وكانت عيناها مفتوحتين باتساع تنظران بمحاذاة رأسي الى السماء

كاندس اتذكرين كيف جعلت دلزي تصيح عليك لأن ثيـــابك السفلى تسخت بالطين

لا تبك

لست ابكي يا كاندس

ادفعها الا تريد ان تدفعها

اتريدينني ان افعل ذلك

نعم ادفعها

المسيها بيدك

لا تبك مسكين كونتن

ولكنني لم استطع الكف عن البكاء فأمسكت برأسي عند صدرها الصلب الرطب وجعلت اسمع قلبها ينبض بثبات وبطء وما عاد يضرب كالمطرقة والمـــاء يثرثر بين اشجار الصفصاف في الظلام والتوت ذراعي وكتفي تحتي

ما هذا الذي تفعله

واجتمعت عضلاتها فجلست منتصباً

سكيني لقد اسقطتها »

ويستمر تذكره كيف قاما وحاول ان يمنعها عن الذهاب لمقابلة عشيقها ، وهي تطلب اليه ان يعود الى البيت :

« وتساقط زهر العسل في رذاذ إثر رذاذ واستطعت ان اسمع الزيزان ترقبنا في دائرة حولنا .. »

واخيراً يعود في اتجاه البيت بين الشجر وهو يسمع الزيزان والضفادع ولا يستطيع نسيان زهر العسل :

« وركضت على الحشيش الاغبر بين الزيزان ورائحة زهر العسل تشتد وتشتد وكذلك رائحة الماء ثم جعلت ارى الماء في لون زهر العسل الاغبر وارتميت على الضفة ووجهي لصق الارض لكي لا اشم زهر العسل فلم اشمه ثم بقيت ملقى هناك اشعر الارض تخترق ثيابي واصغي الى الماء ... »

وبعد ان يفرغ من هذه الذكريات ، وهو ما زال يتمشى عودةً نحو الجامعة ، ندرك ان زهر العسل والمـاء قد اضحيا عنده شيئاً واحداً . ولذلك حالما يرى النهر ثانية يقول :

« هنا رأيت النهر لآخر مرة هذا الصباح . وجعلت اشعر بالمياه واشتمها وراء الاصيل . عندما كان الزهر يتفتح في الربيع ثم يهمي المطر ينتشر الشذا في كل مكان ... فاذا امطرت السماء فان الشذا عند الاصيل يأخذ في التسرب الى الدار وعند الاصيل إما ان المطر يشتد او ان في ضوء الأصيل شيئـــاً يجعل الشذا حينئذ اقوى رائحة . فقد كانت الرائحة تشتد فاجدني مستلقياً على فراشي وانا اقول متى ستقف ، متى ستقف . واذا دخل الهواء من الباب حمل رائحة الماء كنفس رطب مستمر . وكنت احياناً انوم نفسي وانا اعيد ذلك ، الى ان اختلط زهر العسل به ، وأمسى كل ذلك يرمز الى الليل والقلق... »

وهكذا يختلط زهر العسل والماء وكاندس ، فيرمز الواحد الى الآخر. واذا انتحر غرقاً فكأنه انتحر بالشذا وبتلك الخطيئة المريعة التي يتصور انه اقترفها . واذا اقترن كل ذلك بغضبه على تزعزع الاسرة وتلويث شرفها ، اضحى انتحاره نهاية محتومة ، لأنها تعبّر عن تلك النزعات كلها معاً . والى هذا وذاك تبقى الساعة تهذر بالثواني ، ولا تدل على الزمن ، وقد اضحى الزمن عبثاً مؤلماً لم يأت إلا بالموت والانحلال

- ٥ -

وما نكاد نطفر زمنياً الى ٦ نيسان ١٩٢٨ ، لنبدأ المقطع الثالث من السمفونية ، حتى يجابهنا جاسن بقوله رأساً : «عاهرة يوماً ، عاهرة كل يوم . هذا ما اقوله أنا . » فنعلم اننا مع رجل هو نقيض اخيه كونتن . فاذا كان كونتن هو « الأنا الأعلى » الذي تتمثل فيـه تقاليد الاسرة ، فان جاسن هو « الأنا » — بأقبح مظاهره . ففيه الغطرسة النامية عن حقد ، وهو الرجل المتكالب على النجاح المادي مهما تطلب ذلك من خسّة . فهو يختلس مال امه الواثقة فيه ، ويسرق النقود التي ترسلها كاندس شهرياً لتربية ابنتها كونتن سبعة عشر عاماً متوالياً . ومجمل ما يتصف بـــه من اخلاق تقليدية هو نقمته على غراميات الفتاة الناشئة كونتن (وهي التي يعنيها بقوله : عاهرة يوماً ...) ، فيراقبها سراً ويلاحقها « من اجل امي » كما كان يراقب في صباه امها كاندس . ومع هذا فان عشيقته مومس في ممفيس . ويتصف جاسن بكل الرياء المعـروف عن الذين يخشون على مكانتهم الاجتماعية من « كلام الناس » ، فيرفض مقابلة اخته كاندس في دكانه علناً ، لأن سيرتها قد ساءت ، ولكنه يقاضيها مئة دولار ليريها ابنتها الصغيرة دقيقة واحدة ! وهو ساديّ ، يصرّ على خصي اخيه المعتوه (لأن المسكين تطاول على فتاة دون وعي بما يفعل) ، الى ان يخصيه فعلاً ثم يضعه في مستشفى للمجانين ، رغم انـه لا يؤذي احداً ويجد سلوى بمرافقة الخدم الزنوج . ويطلب جاسن الى امه بان تأذن له بجلد الفتاة كونتن . وللحقارة التي في نفسه يحقد على الخدم الزنوج الابرياء . وقد حصل مرة على تذكرتين للسيرك الذي قدم الى بلدة جفرسن ، ولكنه لم يستطع الذهاب . وكان الخادم الصبي « لستر » طيلة اليـــوم

يترجى هذا وذاك للحصول على ثمن تذكرة للذهاب الى السيرك ، ولكن جاسن يحرق امام الصبي كلتا التذكرتين واحدة واحدة ، ولا يعطيه احداهما رغم توسلاته ...

فجاسن يمثل قوى التصدع الناشئة عن الاسرة العريقة نفسها . كما تمثلها كاندس في شكل آخر – بانطلاقها الجنسي ، وكما يمثلها الأب بتهربه من الواقع ، وكونتن بعشقه للموت . ولكن ليس من الصعب الحكم على اي منهم انه قد بلغ الحضيض بالفعل !

والزمن عنصر هام من عناصر هذا المقطع ايضاً . ولكنه هو الآخر يختلف عن الزمن عند كونتن او عند بنجي . فالزمن عند جاسن هو زمن التقويم (الرزنامة) هو تواريخ الدفع والقبض ، ولا تدق الساعة الا لتدل على اوقات الاكل ، فتح الدكان او اغلاقها . فالزمن عنده هو الزمن كما يعرفه التاجر ، ولا مغزى آخر له البتة . بل إن كل شيء عند جاسن لا قيمة له إلا من ناحية الربح او الخسارة . فهو مغضب على انتحار كونتن لأنه انتحر بعد ان بيعت قطعة الأرض لدفع نفقات تعليمه في هارفرد ، وبالتالي لم يستطع هو (جاسن) ان يدرس في جامعة . وعندما يموت ابوه ويدفن يلاحظ ان اخته (وقد جاءت لتحضر دفن ابيها محجبة لئلا يتبينّها أهل البلدة) قد احضرت كمية كبيرة من الزهور ، وللحال يقول «انها تسوى خمسين دولاراً » ...

ولذلك فمن المناسب ان الحادثة المركزية التي تتفرع عنها الحوادث الاخرى والذكريات (وأغلبها يشير الى الحوادث التي عرفناها) ، هي الاختلاس : كيف يتسلم جاسن صكاً من كاندس ، بمبلغ مئتي دولار لينفقها على الفتاة كونتن ، وكيف جاءته كونتن الى الدكان تطالبه بشيء من النقود ، فيدّعي انه لم يتسلم من امها إلا عشرة دولارات يعطيها اياها ، فتشتمه لأنها لا تصدقه . ثم يراها بعد الظهر مع احد ممثلي السيرك في سيارة ، فيلحق بها في سيارته ولكنه يفقد اثرها . وبعد سحب الفلوس ، يزوّر صكاً بنفس المبلغ ويأخذه الى امه ، وهذه – وهي السيدة الشريفة التي تتألم لسوء سيرة ابنتها كاندس – ترفض ان تصرف على حفيدتها اجور الفحشاء ، ويتظاهر جاسن بالموافقة (كما يفعل كل شهر) ويحضر لها معولاً تحرق فيه الصك المزوّر ارضاء لضميرها ! وينتهي المقطع في الليل بدخول جاسن غرفته التي يقفل بابها بحيطة شديدة ، ويخرج الصندوق المخبأ الذي يجمع فيه الدولارات المسروقة ، فيعدّها ثانية ، ثم يعيدها الى مكانها ، وهو يردد « عاهرة يوماً ، عاهرة كل يوم » ويمنّي نفسه بأنه سيبز كل يهود نيويورك في الحصافة المالية .

ويتبدّل الاسلوب في الحال حين نبدأ الحركة الرابعة من الكتاب بصباح اليوم الثامن من نيسان – فكل مقطع يبدأ صباحاً وينتهي مساء – ويقصها المؤلف ، الذي نسمع صوته لأول مرة : « طلع الفجر قاحلاً قارس البرد ... » ويصف لنا طلوعه على الخادمة الزنجية دلزي ، وهي التي نشاهدها في المقاطع السابقة تعمل باستمرار على راحة كل فرد في الاسرة ، تعرفهم جميعاً خيراً مما يعرف بعضهم بعضاً ، وتحنو عليهم بعطف رؤوم ولا سيما المستضعفين منهم .

وفي الفقرات الاولى يصفها المؤلف : يصف وقفتها وثيابها وهي تفتح الباب ، ثم يأتي إلى جسمها فيجعل منها ضرباً من القديسة في هذا الوصف الذي يجمع بين الدقة والشاعرية :

« كانت امرأة ضخمة فيما مضى ، ولكن هيكلها الآن ينتصب ، يكسوه إهاب واسع غير محشو ، يشتد ثانية عند بطنها الضامر ، كأن العضل ولفائف اللحم كانت يوماً شجاعة او جلداً اتت عليها الايام والسنون ، حتى لم يبق إلا الهيكل العظمي الذي لا يقهر ، منتصباً كالخرائب او المعالم فوق الاحشاء الوسنانة التي لا تشق ، ويعلو جميع ذلك وجه متداع يوحي للرائي بان عظامه خارج اللحم ، يرتفع أمام النهار المندفع بتعبير في القسمات قدري . »

فدلزي تختلف عن الآخرين لانها مثال التحمل والصبر والعطف ، وإذا كانت الاسرة في طريقها الى الانحلال والاضمحلال فإن الزنوج – وهم ليسوا إلا خدماً – هم الذين يبقون و«يجالدون» . ما أشد الفرق بين دلزي وبين سيدتها « مسز كمبسن » – تلك السيدة العليلة ابداً ، المصرة ابداً على انها من كرام القوم ، وقطعة القماش المخضلة بالكافور دوماً على جبينها لتلطّف عنها الألم .

لعل هذا المقطع ما وجد إلا من اجل دلزي . إلا ان الحادثة المهمة هنا هي اكتشاف جاسن ان الفتاة كونتن قد تسلقت شجرة الاجاص ودخلت منها الى غرفته بعد ان كسرت زجاج النافذة ، وسرقت أو استردت) مالها ، وهربت مع ممثل السيرك . فيجن جاسن ، ويخرج للبحث عن كونتن ويبدو انه سيقتلها إذا وجدها . ولكنه لا يعثر لها على اثر (ولا نعرف شيئاً عنها بعد ذلك) ، بل إنه لحنقه يتعدّى على جزّار بريء اثناء البحث ، فيكاد هذا يقتله لو لم ينقذه بعض الواقفين هناك .

اما دلزي فانها في الصباح الباكر ، قبل الذهاب الى الكنيسة ، تقبع في المطبخ وقد سمعت ضوضاء جاسن عندما

اكتشف امر كونتن . واذا المؤلف يذكرنا بالزمن مرة اخرى:

« وراحت الساعة تدق ، تك تك ، تك تك ، في وقار وعمق ، كأن ذلك نبض البيت المتداعي نفسه ... فأخذ بنجي يئن ... »

وبعد ذلك تذهب الى كنيسة الزنوج ، وتأخذ معها ابنها وبنجي ، لتسمع الموعظة ، واليوم هو احد العيد الكبير ، يوم بعث المسيح . وهناك ، وقد هزت مشاعرها كلمات الواعظ الرهيبة عن الموت والقيامة ، « تدحرجت دمعتان على خديها المهدّمين ، وهما تدخلان وتخرجان من ملايين التجاعيد ، تجاعيد التضحية ونكران الذات والزمن ... »

ويفرغ الواعظ من خطبته ، وتخرج دلزي من الكنيسة برفقة بنجي وابنها « فروني » :

« لم تنس دلزي بحس ، ولم يرتعش وجهها والدموع تجري في مجاريها الهابطة العديدة ، ومشت برأس مرفوع دون ان تحاول مسح دموعها .

فقال فروني: « لماذا لا تكفي عن ذلك يا اماه، وهؤلاء الناس يرقبوننا؟ وبعد لحظات سنمر بالقوم البيض . »

فقالت دلزي : « لقد رأيت البداية والنهاية . لا عليك . »

— اية بداية واية نهاية ؟

فقالت دلزي: « لا عليك. لقد رأيت البداية، وها انا الآن ارى النهاية . »

وإذ يصرخ بنجي وينوح من جديد حين يبلغون البيت ، تحض دلزي ابنها على اخذه في عربة الى المقبرة ليشاهد قبر اخيه المنتحر . فيفعل ابنها ذلك ويعطيه زهرة ليحملها فيهدأ . ولكن جاسن يرى العربة في ميدان المدينة — وقد عاد خائبا من بحثه عن الفتاة الآبقة — فيستشيط غضبا ، ويوقف العربة ، ويصفع الصبي ويلطم بنجي ، ويأمرهما بالعودة الى البيت ، فيعودان وبنجي ينوح والزهرة مبتورة الساق في يده من لطمة اخيه .

ويتردد في الذهن صدى كلمات دلزي بعدما شاهدته من صخب وعنف في بيت آل كمبسن ، كأنها كلمات الكورس في المآسي الاغريقية: « لقد رأيت البداية والنهاية . »

جبرا ابراهيم جبرا

كمبردج — ماساشوستس

(الولايات المتحدة)

لجنة التأليف المدرسي

تقدم الى المدارس المجددة اصلح الكتب وادقها انطباقاً على نظريات التربية الحديثة . صدر عنها :

المروج : سلسلة كتب حديثة في القراءة

الجزء الاول ١٠٠ ق.ل — الجزء الرابع ٢٠٠ ق.ل
« الثاني ١٥٠ « — « الخامس ٢٢٥ «
« الثالث ١٧٥ « — « السادس ٢٥٠ «

يلحق بهذه السلسلة كتاب « المروج الملونة » وقد اعد خصيصاً لحدائق الاطفال وثمنه ٧٥ قرشاً .

الجديد في دروس الاشياء : سلسلة كتب حديثة في العلوم

الجزء الاول ١٠٠ — الجزء الثالث ١٧٥
« الثاني ١٥٠ — « الرابع ٢٠٠

كيف اكتب : سلسلة حديثة في الانشاء العربي

الجزء الاول ١٠٠ — الجزء الثالث ١٧٥
« الثاني ١٥٠ — « الرابع ٢٥٠

الجديد في دروس الحساب : سلسلة كتب حديثة من الرياضيات

الجزء الاول ١٢٥ — الجزء الرابع ٣٠٠
« الثاني ١٧٥ — « الخامس ٣٥٠
« الثالث ٢٢٥

الجديد في قواعد اللغة العربية : سلسلة كتب حديثة في القواعد

الجزء الاول ١٠٠ — الجزء الثالث ٢٠٠
« الثاني ١٥٠ — « الرابع ٢٥٠

تطلب هذه الكتب من :

مكتبة انطوان
مكتبة بيروت
دار العلم للملايين
دار المكشوف
مكتبة لبنان
ومن سائر المكتبات في لبنان